# شعر الطفل وإسهاماته في بناء الهوية الثقافية

**أ. فاطمة فؤاد أحمد**

**كاتبة أطفال**

## مقدمة

إن تعاقب الأجيال في أزمنة عدة ما زال أثره يعلق بالوجدان، وإن مراحل العمر المختلفة لتشهد على عبق التاريخ الرحب بصوره المتعددة، فليبق الشعر ذلك الصوت النابض الذي يعبر بنا عبر تاريخ أمتنا، ونصف من خلاله صور شعرية ومشاهد رقراقه وأحوال وحالات تؤجج من خلالها أروقة تشهدها تواريخ الأوطان.

إن الشعر الذي يسلك طريقا نحو الوطن يسمو بالعقول والأفهام، بل ويحرك ألباب تغير وتستقر في الوجدان لتكون ومضات تضيء الطريق لأجيال قادمة أيضًا، ويربي فيهم القيم، ويبني الهوية الثقافية.

والشعر إن كان لونًا من ألوان الأدب فهو يربي في نفوس الصغار الكثير من المفاهيم الحقيقية التي تظل تعلق بالذاكرة لفترات طويلة، تؤثر وتتأصل معانيها ولغاتها المتباينة من خلال ما يقدمه الشعراء في مختلف العصور، وإن بحور الشعر ونظمه بدقة وإبداع وإن كان يعبّر عن قائله، ويصف كثيرًا من تجارب الشعراء، ويتضمن صورًا مختلفة، ويعالج الكثير من القضايا إلا أنه لا يتوانى في أن يحقق للطفل كثيرًا من الرعاية والعناية والتذوق

للجماليات الإبداعية التي تفجر أحيانًا كثرة المواهب، بل ويعبّر عن فئات كثيرة من الصغار بأعمارهم المختلفة.

فإن الشعر مرآة الطفل، قد يجد فيه ضالته، لتستقر في نفسه أبيات شعرية يتخذها قدوة له، وأحيانًا يعتنق الأفكار التي تتبناها تلك الأبيات لتلمس وترًا حساسًا في نفسه، فتعالج شيئًا بداخله، أو تحفزه على النجاح، أو تخاطب وجدانه وتعلمه درسًا جديدًا من دروس الحياة. إن أقصر الطرق إلى قلب الصغار رسالة في أبيات شعرية تمس أوتار وجدانه وتعبّر عن حالاته المختلفة وقت الصفاء والارتقاء، وتعبر في آن آخر عن الغضب وعدم الارتياح، وفي وقت آخر عن الفرح والنجاح، وهكذا تستقر في وجدانه فتصف لنا آماله وأحلامه أيضًا، فتغير سلبياته وسلبيات مجتمعه دون المساس به أو خدش مشاعره، بل ترقى بشعوره وأحاسيسه لتحول الكامن في مخيلته أحيانًا لحقائق تمكنه من غدٍ أفضل يحلم به.

ويتضمن البحث المقدم بعض النقاط الهامة التي يرتكز عليها بناء الهوية القومية والثقافية من خلال شعر الطفل الذي يعتبر لونًا أدبيًا هامًا.

## نقاط البحث:

### ١. شعر الطفل في التراث العربي وتطوره

إن التراث غني بالنصوص النثرية شريطة أن تخضعها لظروف عصرها وطبيعته وقيمته وعاداته، كما أننا نعثر في الأدب العربي على بعض المؤشرات الإيجابية التي انفرد بها الأدب العربي عن غيره، وتميز بها في

الاهتمام بتربية الأطفال روحيًا وجسديًا منذ مجيء الإسلام، ووجود أرضية تراثية خصبة تضمنها التراث الأدبي الواسع. ولم يفرد الأدب العربي القديم والوسيط للأطفال انتاجًا أدبيًا مخصصًا له أو موجهًا إليهم، لكنه جعل الأطفال موضوعًا لبعض الموضوعات الأدبية. ولعل أبرز الأشكال الأدبية التي اتخذت الأطفال موضوعًا لهذا كان في القصيدة الشعرية، وكان أهم غرض شعري في هذا الصدد هو رثاء الأبناء، وخاصة الأطفال منهم، كما نجد غرضًا آخر يرد في بعض الأبيات الشعرية ينوه بإيثار الأطفال، ويصف محبتهم والشعور بالمسئولية نحوهم(١).

أما في النثر فنجد أشكالًا من النصائح والوصايا التربوية المتعلقة بتعليم الأولاد وتهذيبهم، وخاصة الموجه إلى مؤدبي الأطفال ومربيهم.

فالشعر يتيح الاتصال بالأدب مع الطفل، فالقصيدة القصيرة والبسيطة تكون عادًة مليئة بالحركة والمرح والحوادث المسلية، والإشباع الموسيقي لأبيات الشعر(٢).

في عشرينيات القرن العشرين ظهر شعر الأطفال في العراق تحت تأثير أحمد شوقي الذي يعد الرائد الحقيقي لأدب الأطفال في العالم العربي، كما يتجلى ذلك واضحًا في ديوانه (الشوقيات).

ونشير هنا إلى أن أثر أحمد شوقي في مسيرة أدب الأطفال العربي الحديث لا يمكن إغفاله، فهو أول من ألف أدبًا للأطفال باللغة العربية، وقد ظهر اهتمام شوقي بهذا الفن بعد دراسته في فرنسا، واطلاعه على أدب

الأطفال هناك، فنظم كثيرًا من القصص على ألسنة الطير والحيوان، مثل قصة (اليمامة والصياد)، و(الثعلب والسفينة)، و(البغل والجواد)، وهنا نأخذ نموذجًا لأدب الأطفال للشاعر أحمد شوقي الذي يقول فيه:[٣]

برز الثعلب يومًا في شعار الواعظينا
فمشى في الأرض يهدي ويسب الماكرينا
ويقول الحمد لله إله العالمينا
يا عباد الله توبوا فهو كهف التائبينا
واطلبوا الديك يؤذن لصلاة الصبح فينا

نجد أن القصة على لسان الحيوان ليست جديدة على الشعر العربي، فالكل يعرف أن كتاب (كليلة ودمنة) ترجم إلى العربية قبل أن يترجم إلى اللغة الأوربية، وان الأديب الفرنسي لافونتين قد برع وبرز في قصصه التي اقتبسها عن كليلة ودمنة، والتي جعلت من لافونتين صاحب فضل على أحمد شوقي وغيره من شعراء العرب الذين قلدوه، ونجحوا في تقديم قصص لا تقل جودة عن قصص وحكايات لافونتين.

وهنا نجد أن شوقي في هذا النص يستنطق الحيوان ويتحدث على لسانه بأسلوب سردي قصصي بسيط يتناسب مع مخيلة الطفل ومرحلته العمرية [٤].

وهناك اتجاهان حول تحديد الشعر المناسب للأطفال، أولهما: يرفض الشعر الذي يكتبه من يسمون بشعراء الأطفال، اذا توقفت مواهبهم عند هذا

الحد، واقتصر نظمهم على شعر الصغار، ويدعو أصحاب هذا الاتجاه إلى أن يقدم للأطفال ما سهل معناه وخفت موسيقاه، وناسبهم موضوعه وأهدافه من نتاج الشعراء الكبار، ومن ثم يجب البحث في شعر البارودي وشوقي وحافظ والزهاوي والرصافي ومطران وأحمد رفيق المهدوي والمازني وأبو شادي والشابي والتيجاني ونزار قباني، وغيرهم من الشعراء عما يصلح اقتباسه للأطفال، وذلك الشعر– حسب هذا الاتجاه– هو الزاد الحقيقي والمناسب للأطفال.

والاتجاه الآخر: يحدد الشعر الذي يقدم للأطفال بما يكتبه الشعراء ابتداءً للأطفال، وهو ما يسمى بشعر الأطفال. وذلك كشعر محمد الهراوي ومحمود أبو الوفا وبهيجة صدقي وأحمد شوقي في حكاياته الشعرية للأطفال، وغيرهم ممن كتبوا شعرًا للأطفال(٥).

والحق أنه لا داعي لهذا الخلاف؛ لأننا حين نختار شعرًا للأطفال إنما نختار الشعر الذي يتحدث الى الطفل بلغة الشعر، بقطع النظر عن أنه قيل ابتداءً للصغار أو الكبار، وقد لا يستطيع شاعر مشهور أن يتصل بالأطفال عاطفيًا أو يرتبط بهم ذهنيًا بواسطة شعره، بينما يتمكن من ذلك شاعر مغمور. ومن ثم ينبغي أن تشمل تجارب الأطفال مع الشعر ما يكتبه شعراء الأطفال، وما يكتبه الشعراء الكبار مما يعالج موضوعات ذات مغزى للأطفال(٦).

ولعل الشعر العربي في تلك المراحل بأوزانه المختلفة يعبر عن طابع الأوزان الموسيقية التي يسير عليها اللحن والغناء في العصر الجاهلي فقد عرف الشعر عندهم، وإن لم يكن بالإمكان تحديد نشأته بدقة، فظهوره ولا شك ضارب

في القدم في أعماق تاريخ العرب في العصر الجاهلي، ومن الممكن أيضًا تحديد بعض المراحل التي مرّ بها الشعر العربي القديم:

- مرحلة البساطة في القول والمعنى واللحن، وهي أغانٍ قيلت في مواقف سريعة أدت إلى تأثر قائلها وانفعاله.
- مرحلة ظهور معالم الشعر، حيث رافق ذلك ظهور بعض الأوزان الخفيفة والقوافي.
- مرحلة الأوزان الشعرية المتنوعة.

ولعل هذا التطور الذي شمل الشعر في هذه المراحل الثلاث كان نتيجة للظروف المعيشية التي كان يعيشها العرب في الجاهلية، والتي كانت في معظمها قائمة على التجارب الشخصية، وفي كثير من التجارب الشخصية الأخرى في المعارك والحروب، وما كان يصاحبها من أغاني الحماس والتشجيع، وفي الترحال والتنقل والإقامة في الخيام، وتذكر الأطلال، وفي صراعهم مع حيوانات الصحراء، ومع قساوتها المناخية، كل ذلك أدى إلى ظهور متطور في الشعر، حتى وصل إلى شكله المعروف في أوزانه وقوافيه وموسيقاه(٧).

ولقد عرف التراث العربي شعرًا يؤلفه أطفال أصبحوا فيما بعد من كبار شعراء العربية، كان من بينهم الشعراء: طرفة بن العبد، وكعب بن زهير، ولبيد بن ربيعة وأبو الطيب المتنبي، وعبد الله بن المعتز.

كان إنتاجهم للشعر هو نتاج عن تجريب ومران، فالشاعر يولد في القبيلة، ويجد أن الشعر يلعب دورًا متميزًا في تشكيل الحياة الاجتماعية، وهو مصدر من مصادر رأس مال القبيلة، وهو الحاضنة التاريخية لتصورات القبيلة عن نفسها وتاريخ حروبها وقيمها، ونسبها الذي يميزها عن غيرها من القبائل، فكان ميلاد شاعر حدثًا اجتماعيًا يُحتَفَى به، ولم يكن الشعر كواحد من وجوه الممارسة الأدبية المتعددة شيئًا نتاج الموهبة الفطرية، ولكنه وليد الاكتساب الذي يبدأ منذ لحظة الميلاد. فالطفل الرضيع ينصت إلى شعر تردده له أمه يعبر عن مشاعرها الخاصة تارة، وينقل ويغرس القيم العليا للجماعة القبلية، ثم يكبر ويبدأ حال إحساسه والرغبة في ممارسة إنشاد الشعر أن يتعرض لما يمكن تسميته بالتعميد الشعري؛ وهو أن يمر الفرد بتدريب شاق على فن الشعر، يبدأ بحفظ عدد كبير من الأبيات حتى رواية الشعر، ثم تأليفه كآخر المحطات(٨).

**٢. تشكيل وبناء الهوية القومية والثقافية عند الصغار**

ثقافة الإنسان كلها متّعلمة، يتعلمها كل جيل من الجيل السابق، ولا يرثها بالجينات أو الموروثات البيولوجية، أو كما يقول عامة الناس (بالدم)، ويشار إلى الانتقال بالتعلم جيلًا عن جيل باصطلاح (الوراثة الاجتماعية) تمييزًا لها عن (الوراثة البيولوجية) التي عن طريقها تكتسب الكائنات الأخرى، غير الإنسان، القسم الأكبر من سلوكها أو أساليب حياتها.

إن الرموز التي تكوّن هوية شعب من الشعوب أو أمة من الأمم تستقي مضمونها ومعانيها وأهميتها من كلا النوعين: الرسمي، والشعبي، من الثقافة.

ولكنني أعتقد أن الرموز المستوحاة من الثقافة الشعبية هي العنصر الأهم في تكوين الهوية الجماعية للشعب أو للأمة، وهي الجزء الأهم في الحفاظ على هذه الهوية، وضمان استمراريتها في تعزيزها وتثبيتها[٩].

تطوير ثقافة الأطفال في التربية، عن طريق التنسيق بين سياسات واستراتيجيات تنمية الثقافة والثقافة، وبين سياسات التنمية واستراتيجياتها ودور المدرسة في تعزيز الثقافة، وتدعيم البعد الثقافي والفكري لمناهج المدرسة، وتوفير المداخل لفهم التراث الثقافي القومي وتقديره، وتعليم التاريخ القومي، والتعريف بالمشكلات الكبرى للعالم المعاصر، وغير ذلك[١٠].

إن ميادين التربية الثقافية تجعل من ثقافة الأطفال في الوقت نفسه معينًا حيًا لتطوير التربية ذاتها، نابعًا من الإقرار بدور الثقافة كأساس يرتكز عليه مضمون التربية، أما أساليب ثقافة الأطفال بوصفها حرة قابلة للإبداع الذاتي ومشاركة الأطفال في إنتاجها فهي الأقرب لمتناول الأطفال، والأقدر على تربية مشبعة بالروح الإيجابية الأصيلة المتفاعلة مع بيئتها ومجتمعها وعصرها وعناصرها وثقافتها القومية والوطنية".

وثقافة الأطفال مجال رحيب لفهم وقائع التاريخ الكبرى ومنعطفاته الرئيسة، وأعلامه البارزين، ودلالاته الحية التي صاغت وتصوغ الحاضر. وتكون ثقافة الأطفال مجدية وفعّالة أكثر إذا صارت وسائطها صوتًا لمنجزات الأجداد وقيمهم الباقية، ومنها أيضًا انبثاق ثقافة الأطفال من ينابيعها الشعبية كالحكايات الشعبية، والسير والشعر، وطرائق تعبيرها، وأساليب خطابها الأقرب

لروح الأطفال، وخصائص التلقي لديهم، وغني عن القول إن الأهمية القومية لثقافة الأطفال بوصفها حصنًا للهوية القومية تتطلب جهدًا تربويًا وثقافيًا استراتيجيًا يجيب في الواقع على أسئلة التراث والخصوصية والفرادة في تفاعلها الإيجابي مع تراث الإنسانية والحاجات الوظيفية المستقلة(١١).

وتربية الذوق الأدبي وتنميته عند الأطفال يجعلنا نعقد الصلة بينهم وبين الشعر الممتاز مهما كانت بواعثه، بشرط أن نحدثهم في موضوعات تروقهم، وتناسب عقليتهم، وتدخل في نطاق تجاربهم ولا بد أن يدخل في الاعتبار أن الشعر فن جمالي يعتمد على الذوق الشخصي، فما هو شعر عند قارئ قد لا يُحدِث بالضرورة نفس الاستجابة الشعورية عند الآخرين(١٢).

وهنا يبرز سؤال ملح، وهو: أن نعّلم الأطفال الشعر ليكون هدفًا بحد ذاته؟ أو نعّلمه ليكون وسيلة لغرس القيم التربوية؟، وهل يمكن تحقيق المعادلة الصعبة بين الفن والتربية، فنحقق بذلك الغرضين معًا؟ فإن الغرضين يجب أن يتحققا معًا وبشكل متوازن ومنسجم، ولا يمكن أن يحقق هذا إلا شاعر متمرس من الناحيتين: الفنية، والتربوية، يستطيع أن يقدم شعرًا لا تحول فيه الصياغة الفنية دون الإيصال التربوي(١٣).

### ٣. اللغة وتأثيرها الثقافي والوجداني في الشعر

امتازت ألفاظ شعر الطفولة بسهولتها ووضوحها وبعدها عن التعقيد اللفظي، ويعود السبب في ذلك إلى مستوى الطفل اللغوي والإدراكي؛ كي يستطيع الطفل استيعابها وبالتالي حفظها.

وعلى الرغم من سهولة الألفاظ في شعر الطفولة إلا أنه لا يخلو من استخدام الرمز، ويقدم هذا الشعر إلى فئة الطفولة المتأخرة لحبهم للاستكشاف لمعرفة ما ترمز إليه الكلمات، كما أن الرمز لا يكون صعبًا في تلك القصائد، بل من السهل اكتشافه ومعرفته.(١٤)

والتكرار هي سمة بارزة من سمات شعر الأطفال، وتكمن أهمية التكرار في شعر الكبار في قدرتهم على تعميق المعنى، وزيادة التأثير في نفس المتلقي، ويستخدم لإثبات قدرة الشاعر على تصوير الواقع أو الفكرة التي أرادها في القصيدة، أما في شعر الأطفال فوظيفة التكرار تساعد الطفل على التفاعل مع النشيد وحفظه وفهمه، فهو من أهم السمات التي يجب أن يمتاز بها شعر الطفولة، كون الطفل يستمتع مع النشيد، ويكون محببًا إلى نفسه، فيحقق بذلك الشروط النفسية للطفل وخصائصه النمائية التي يجب أن تُراعى، ويقسم التكرار إلى قسمين: تكرار المقطع، وتكرار اللفظ، باستخدام الأساليب الإنشائية.

احتوى شعر الأطفال على الجمل الإنشائية التي تعطي الشعر نوعًا من الحركة والتفاؤل الذي يشد الطفل ويثري عاطفته ويشد انتباهه، ومن القصائد التي استخدمت هذا النوع من الجمل قصيدة الله موجود، لأحمد نجيب(١٥):

أنظر إلى العصفور يطير في الهواء
يجمع بعض القش يصنع منه العش
من علم العصفور أن يجمع القشّا؟
من علّم العصفور أن يصنع العشّا؟
الله ربُنا.. ورب كل شيء

يُلاحَظ في القصيدة وجود عدد من الجمل الاستفهامية، وهذه الجمل تخلق في العادة قوة في التأثير، وتزداد فيها حركة القصيدة، كما أنها تُبرز إبداع الله عز وجل في الخلق، وكان ذلك باستخدام أسلوب إنشائي.

إن معظم شعر الأطفال التزم الشعر العمودي، وذلك لمراعاة القافية التي تشكل جانبًا من البناء الموسيقي لشعر الأطفال، فالشعر الموزون المقفى يعد المفضل للطفل، كما تتميز القافية بالتسكين؛ حتى تكون قريبة من الطفل، لقرب التسكين من العامية البسيطة، وفي شعر الأطفال يكون الالتزام أكثر في البحور الصافية التي تلتزم تفعيلة واحدة حتى لا يشعر الطفل بالملل خلال ترديد النشيد، ويعتمد كتَّاب شعر الأطفال على البحور المجزوءة، وخصوصًا عند الكتابة للطفولة المبكرة؛ لأن إيقاعها سريع، ويتفق مع حاجة الطفل إلى اللهو والمرح والحركة(١٦).

إن شعرنا جدير بأن يبلغ آفاق أسمى لو منحناه الجسارة اللغوية؛ ذلك لأن الفكر الغني لا بد له من لغة غنية تستوعبه، وأظن أن سبيلنا إلى ذلك هو إتقان اللغة، ولا بد لإتقان اللغة من معاودة النظر في التراث الأدبي العربي لا لمحاكاته، ولكن لإدراك الغنى الفائق للغتنا العربية من خلاله، ثم لا بد بعد ذلك من الإقدام على الألفاظ الجديدة وترويضها للدخول في سياقاتنا الشعرية(١٧).

فالمسألة كما هو واضح ليست مسألة فصحى وعامية، أو نثر وشعر، أو شعر عمودي أو شعر حر، بل إنها مسألة إبداعية العمل بما يعنيه ذلك من

أصالة وتفرد وتكثيف وشفافية، وغير ذلك من أبعاد إبداعية ينبغي توافرها في العمل الفني عمومًا(١٨).

### ٤. الخيال والمسرح الشعري، ودوره في الهوية الثقافية

للصور الخيالية دور لا يبارى في التلذذ بذوق الشعر، ذلك أن الخيال يفتح الآفاق أمام النفس البشرية، فلا تشعر بالملل من الوجود جراء ما ترى من مفرداته كل يوم وكل ساعة، بل كل لحظة على ذات النحو دون تغيير أو تجديد، فيأتي الخيال ليعوضها عما حرمته من التجديد.

ورؤية الدنيا على أوضاع لم تتعودها، ومن ثم لا تشعر تجاهها بالملل والضيق، كذلك فإن الفطرة الإنسانية تتوق إلى الانعتاق من قيود الحياه وقوانينها الصارمة، فلا تجد ذلك الانعتاق إلا في الخيال، والدنيا دون خيال تكون شديدة الضيق، فيجيء الخيال ليوسعها، وينطلق الإنسان الى عوالم أرحب وأكثر انفتاحًا؛ حيث يتعامل مع أشياء أكثر مواتاة وطواعية، وفوق ذلك فالخيال يخاطب فينا الطفولة الخالدة في أعماقنا، تلك الطفولة التي تبث الحياة في الجمادات والمعاني، وتتلذذ بمخاطبة الأشياء من حولها وإخضاعها لما تريد، وعلى النحو الذي تبغي، والخيال يمدنا بالتعزية التي نحتاجها حين نحرم مما أو ممن نحب، أو حين يقع بنا مكروه أو ألم، فنجد دنيا أكثر حنانًا وتفهمًا تعوّضنا عما حرمناه أو تعذبنا بسببه، أو على الأقل يرينا ناسًا يقاسون مثلما نقاسي، ويتألّمون كما نتألم، فلا نشعر أننا وحدنا في محنتنا، بل هناك من يشاركوننا

ونشاركهم الوجدان، وفوق هذا فمن شأن الخيال أن يملأ نفوسنا رضًا واعتزازًا؛ لاستطاعتنا أن نلمح بين عناصر الوجود التي تبدو متباعدة لا صلة بينها وجوه شبهٍ تقربها، وتقضي على ما بينها من تباعد، فنرى الكون المتنافرة عناصره وقد سادته قرابة لم تكن فيه(١٩).

أما بالنسبة لمسرح الطفل، وإن كانت إرهاصاته الأولى تمتد إلى العصور القديمة، إلا أنه قد تراجع، ولم يجد من يعتني به، كما أن عروضه غالبًا ما كانت ارتجالية لا تعتمد على نص فعلي، أما خلال القرون الأخيرة فبدأ مسرح الطفل في الظهور بشكل منظم، فعمومًا النشأة الحقيقة لمسرح الطفل كانت في القرن (١٩)، وارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالمحاولات المسرحية للأديب هانز كرستيان أندرسن الذي يعد في طليعة من كتب مسرحيات للأطفال في العصر الحديث. أما في الوطن العربي فهذا الفن قديم حديث؛ حيث يعود للقرن السابع الهجري(٢٠).

غير أن النهضة الحقيقية وإن تأخرت في القياس إلى أوروبا، وذلك لأسباب مختلفة، كانت مع الشاعر محمد الهراوي في العصر الحديث الذي يعد الرائد الحقيقي للتأليف الإبداعي لمسرح الطفل، وقد تنبه الأدباء العرب أخيرًا إلى أهميته؛ فألقوا المسرح الشعري والنثري للأطفال، حيث بذلوا جهودًا في هذا الباب تستحق الإشادة والتنويه، وإن كان يغلب عليها الاجتهاد الفردي، بعيدة عن التنسيق والتخطيط(٢١).

وقد يكون من المهم هنا أن نضيف الرأي السائد بين الأكاديميين من أن "التمييز بين الشعر المسرحي والمسرح الشعري ليس شيئًا مستحدثًا، ولكنه شيء قديم معروف، عرفته كل الآداب التي عرفت المسرح والشعر، الشعر المسرحي شعر أولًا ومسرح ثانيًا، أما المسرح الشعري فهو مسرح أولًا وشعر ثانيًا، والآداب العالمية لم تعرف الشعر المسرحي إلا بعد أن جفت ينابيع المسرح الشعري".

ومهما يكن فإن سعي شوقي كان الجهد الأول والمهم لإجراء عملية التأصيل التي حاول غيره بعدها السير على خطاه، فلم يزد جهدهم على تنوعه العملي والتجريبي والاجتهادي على أن يكون ظلًا لمسرح شوقي الشعري في المقام الأول. لقد حاول العديد من الكتاب أن يمتثلوا صفحات التأصيل في هذه الفترة التي حاولوا فيها في النصف الأول من القرن العشرين، ونستطيع أن نري هذا في مصر أو في الشام أو هبوطًا وصعودًا من المغرب العربي[٢٢].

### ٥. الشعر بين الحاضر والماضي

إن مهمة الشعر الحقيقية ليست في رواية الأمور كما وقعت فعلًا، بل رواية ما يمكن أن يقع، والأشياء ممكنة: إما بحسب الاحتمال أو بحسب الضرورة؛ لذلك فإن المؤرخ والشاعر لا يختلفان؛ لكون أحدهما يروي الأحداث شعرًا، والآخر يرويها نثرًا (فقد كان من الممكن تأليف تاريخ هيرودوتس نظمًا، ولكنه كان سيظل مع ذلك تاريخًا سواء كتب نظمًا أو نثرًا)، وإنما يتميزان من

حيث كون أحدهما يروي الأحداث التي وقعت فعلًا، بينما الآخر يروي الأحداث التي يمكن أن تقع؛ ولهذا كان الشعر أوفر حظًا من الفلسفة، وأسمى مقامًا من التاريخ؛ لأن الشعر بالأحرى يروي الكلي، بينما التاريخ يروي الجزئي(٢٣).

فالشعر هو أول الأشكال الأدبية التي عرفتها الإنسانية في عهودها الأولى فهناك من يقول أن الشعر مرتبط ارتباطًا وثيقًا بطفولة الإنسانية، فقد كان الشعر هو السائد عنما كانت الإنسانية تخطو خطواتها الأولى. لقد وجد هنا الإنسان ملاذه بالشعر؛ لأنه مساحة تسمح له أن يشكل واقعه ويغيره، كان بالشعر يغير مكانه الطبيعي المحدود إلى مكان نفسي يساعده على إقامة توازنه النفسي ليستمر في البقاء(٢٤).

ولذلك يعتبر الشعر عنده الزمن الذي يجسد به المكان، والعلاقة بين الطرفين (المكان، والزمان) هي الطفولة، فالشعر طفولة الإنسانية، وطفولة الإنسان هي بدايتها عندما كانت الطبيعة مكانها الأول.

لهذا كله يجد الكبار في الشعر الموجه للأطفال ضالتهم؛ لأن فيه طفولتهم، كما يجد الأطفال في شعر الراشدين متنفسًا عندما تضيق سبل الإبداع في مجالهم، فقبل نشوء أدب الطفل بمفهومه المعاصر عاش هؤلاء الصغار زمنًا طويلًا على مائدة شعر الراشدين، يرددونه ويبذلون جهدًا وعنتًا في حفظه واستظهاره.

فالشعر يتحدث عن الحياة والكون والإنسان، والشاعر يتحدث عن هذه القضايا بأحاسيسه وعواطفه وعقله، وهو في هذا يستخدم اللغة التي يفهمها

المتلقي صغيرًا أكان أم كبيرًا، ويحاول من خلال هذه اللغة دفع المتلقي إلى مشاركته في أحاديثه، والتفاعل معه، ثم الاقتناع بما يقوله، وكل هذه القضايا يشترك فيها الطفل مع الراشد(٢٥).

واختيارًا بين الحاضر الفج الذي لم تتشكل معالمه تمامًا والماضي الميت، ومن الشعراء من نجح في اجتياز الأزمة، وتغلب على الحيرة في أنه صهر الماضي في بوتقة الحاضر؛ ذلك أن الماضي الذي انقطعت صلته بالحاضر هو ماضٍ ميت، إنه مجرد فراغ أدبي، وبالقياس نفسه لا يعد الحاضر حاضرًا إذا كان صدى مباشر بمسيرات الواقع، وليصبح مجرد مجموعة من المثيرات الحسية أو من الصور المفككة في أحسن الأحوال(٢٦).

ولقد واجه الشاعر العربي المعاصر الإشكالية ذاتها حيث لم يستطع رواد الشعر الحديث ولا شعراء الحداثة العربية من بعدهم، ولم يريدوا قطع الصلة بتراثهم بمجرد أنه ينتمي إلى ماضٍ لم يعايشوه ولا يعبر عن أشواقهم وحاضرهم، بل على العكس تواصلوا مع ماضيهم الأدبي تواصلًا دؤوبًا، ومهما اختلفت درجة التواصل مع الماضي عند هؤلاء وهؤلاء فإن شعراء الحداثة والعربية تحديدًا بلغوا درجة كبيرة من الوعي النقدي بمعطيات التراث، وتمكنوا من ارتياد آفاقه ارتيادًا واثقًا يقف منه موقف الند للند، لا موقف التابع للمتبوع؛ ومن ثم وجدوا في عالمه الحافل ما يجيب عن تساؤلاتهم الحائرة، وما يثري تجاربهم الفنية سواءً بسواء، ومد شعراء الحداثة العربية أيضًا جسور التواصل

مع الثقافات الأخرى؛ ايمانًا منهم بأنه لم تعد ثمة حدود تفصل بين حضارات الإنسان، وأن الفنان خليق بأن ينهل من نبع أي منها كما يشاء.

حسبما نادى عبد الصبور مرددًا أصداء مقولة إليوت الشهيرة: " ليس ثمة شاعر أو فنان في أي فن من الفنون يملك بمفرده القول الفصل والمعنى الأخير، وإنما تتعدد مكانته وينبع تقديره على أساس ما يربطه من صلات بأسلافه الشعراء والفنانين الراحلين"(٢٧).

الشرارة الأولى في شعر الأطفال أطلقها رائد النهضة العلمية والثقافية رفاعة الطهطاوي الذي كان منغمرًا في مشروعه النهضوي التأسيسي، قد وجد لديه الوقت والحماسة أو النصوص الشعرية التي عرفها شعرنا في العصر الحديث للأطفال، إضافة إلى كتابته الدائمة في التربية والتعليم، متوجًا ذلك بكتابه الضخم (المرشد الأمين للبنات والبنين) عام ١٨٧٥م، إذ وضع فيه خلاصة تجربته وتوجهاته، مع مختارات منتقاه من الشعر والنثر العربيين عبر العصور، بثًا في ثنايا كتابه آراءه التنويرية التي ترى " أن التربية فن تربية الأعضاء الحسية والعقلية، وطريقة تهذيب النوع البشري ذكرًا أو أنثى على طبق أصول معلومة" (٢٨).

إن الدعوات التي أطلقها الطهطاوي في النهضة الثقافية ترددت أصداؤها لدى كثيرين ظهرت واضحة عند الزعيم الوطني الكبير مصطفى كامل، عندما دعا عام ١٨٩٣م إلى الأدب التهذيبي الموجه للتلاميذ على

صفحات مجلة (التلميذ) التي أنشأها للأطفال؛ لبث الروح القومية فيهم، وتربيتهم تربية عصرية.

نخلص من هذا إلى أن مصطفى كامل قد سبق أحمد شوقي إلى شعر الأطفال بخمس سنين[٢٩].

ومما يلفت النظر أن أكثر شعراء مصر المعروفين والمغمورين قد حاولوا كتابة شعر الأطفال بتأثير حاجة الكتاب المدرسي إلى القصائد والاناشيد، فكانت هناك مساهمات لـ حافظ إبراهيم، ويقترب العقاد من عالم الطفل في قصائد: (عيش العصفور)، و(يا قمر)، و(طفل)، وأسهم مصطفى صادق الرافعي في عدد من القصائد الموجودة في ديوانه أو المبعثرة في بعض الكتب والمجلات[٣٠].

وشهدت مصر ظهور أهم الأدباء الذين تفرغوا لأدب الطفل، فـ كامل كيلاني قدم للمكتبة العربية أغزر عطاء عرفته حتى الآن، ولم يكتف كيلاني بالترجمة والإعداد والتأليف القصصي والمسرحي، بل وضع للأطفال عددًا لا بأس به من القصائد، وهي مبثوثة في مختلف الكتب التي نشرها، وقبل ذلك عاشت أجيال من الأطفال العرب على كتاباته لرحالات السندباد البحري[٣١] .

## الخاتمة

يضفي الشعر على الطفل الكثير من السمات والسلوكيات التي تشكل وتهذب وتربي، بل وتكوِّن الشخصية تكوينًا حقيقيًا، ربما يجعله مرهف الحس في كثير من الأحيان، ولكنه يخاطب فيه براءته وحقيقته الصادقة، ولكن السؤال الذي أطرحه من خلال البحث والتقصي هو: هل الصغار في ظل زخم الحياة والإضافات التي أضيفت من عالم مغاير للماضي تجعله يعزف عن ذلك النوع من الأدب؟!، ففي ظل التكنولوجيا والكثير من المشكلات داخل المجتمعات التي قد تجعل منه طفلًا تقليديًا ربما تكون الإجابة صادمة، ولكن بالرعاية والعناية والاهتمام نحقق قدرًا أكبر، بل وتتزايد الأعداد، وذلك من خلال تدعيم عدد من المسابقات المختلفة في الشعر، خاصة كلون يستحق الاهتمام به، وإن كانت الدولة تقييم العديد من المسابقات للمواهب الصغار، فنحن بحاجة إلى المزيد من تدعيم الهوية الثقافية من خلال المؤسسات الثقافية المختلفة، وذلك على المستوى المحلي والدولي أيضًا، فالاهتمام بالأنشطة بصفة دورية يؤكد الفكرة ويدعمها، ويحقق المبدأ الذي رصد لنا صورًا من الماضي، وأرَّخ لنا مدى أهمية الشعر كفنٍ من الفنون الإبداعية، وما قدمه من مصداقية في عصور مختلفة عبر التاريخ.

فإنني تأنيت جيدًا بالبحث والدراسة للفكرة التي واتتني للنهوض بالطفل وتحفيزه جيدًا، وحاجته للتعمق والتأصل لدراسة الشعر دراسة وافية ترتقي به

أكثر عندما يتضمن منهجه التعليمي الشعر منفردًا بذاته في مراحله العمرية المختلفة، من خلال مناهج التربية والتعليم، فإن البدء به في سن مبكرة قد يدعمه ويحقق له مستقبلًا أفضل، وذلك يحتاج إلى استراتيجية وتخطيط ممنهج تقيم عليه الدولة.

إن الشعر يخاطب الصغار خطابًا مختلف، تظهر فيه كل مظاهر الحيوية والانتماء الذي يتحقق من خلال الوصف الشعري الدقيق للكثير من المعاني، والتوظيف الذي يسهم بدوره في بناء الهوية القومية بناءً صحيحًا ينبع من الرسالة الهادفة التي تعبر عن الإيمان الحقيقي بالروح الوطنية التي لا تتزعزع أبدًا لتربي الوجدان، وترقى إلى تأصيل تلك القيم في مسارها الصحيح لبناء الأمة العربية، ولعل الإسهامات التي حققها الشعر على مر الأزمنة تؤكد على ذلك المفهوم وتؤيده، فنجد الصور المتعددة من المنظور الشعري عبرت عن كثير من أشكال الشعر ومدارسه المختلفة، كالشعر المسرحي مثلًا الذي شكلت نصوصه كثيرًا من القضايا، وأدى دورًا في بعض الحقب التاريخية لا ينسى ولا يهمله التاريخ، ولقد شهد الشعر حقبًا تاريخية مختلفة عرجت بنا للكثير من الشعراء والأعلام القدامى والمجددين، وحفروا في تاريخ أمتنا العربية نماذج مشرفة تفخر بها الأجيال جيلًا بعد جيل، ولقد صار التراث منهجًا عميقًا يحمل بين طياته الكثير من الرؤى الحديثة في عالم الماضي والحاضر والمستقبل.

**هوامش البحث:**

١) مجلة التقني، المجلد السادس والعشرون، العدد السادس، ٢٠١٣ ص٢٣.

٢) المرجع السابق، ص ٢٤.

٣) المرجع السابق، ص ٢٦، ٢٨.

٤) المرجع السابق، ص ٢٨.

٥) في أدب الأطفال، دكتور علي الحديدي، مكتبة الأنجلو المصرية، ص٢٠٠.

٦) المرجع السابق، ص ٢٠٠.

٧) أدب الأطفال وأساليب تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم، الدكتور عبد الفتاح أبو معال، ص ٢٥٧.

٨) إبداع الأطفال الأدبي قراءة في ضوء علم اجتماع النص، د. محمود أحمد عبد الله، ص ٥.

٩) دراسات في الثقافة والتراث والهوية، شريف كناعنة، ص ٤٦،٤٧.

١٠) التنمية الثقافية للطفل العربي، عبد الله أبو هيف، الفصل الثالث، دمشق، ص ١٦٢.

١١) المرجع السابق، ص ١٦٢، ١٦٣.

١٢) في أدب الأطفال، دكتور على الحديدي، مكتبة الانجلو المصرية، ص ٢٠٠، ٢٠١.

١٣) مجلة الأثر، الشعر الموجه للأطفال: المصطلح وإشكالية المعايير، د. العيد جلولي، ص ١٤٣.

١٤) جامعة القدس، كلية الدراسات العليا، رغد صالح علي، ص ٤٩، ٥٠.

١٥) المرجع السابق، ص ٥١، ٥٢.

١٦) المرجع السابق، ص ٥٣-٥٥.

١٧) في الأدب المسرحي، د. عبد الحميد شيحة، ص ١٥٨.

١٨) الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر المسرحي، د. مصري عبد الحميد حنورة، ص ٤٣، ٤٤.

١٩) فنون الأدب في لغة العرب: مقالات دراسات ومقالات نقدية وحوارات أدبية، الخيال في الشعر، د. إبراهيم عوض.

٢٠) مجلة النص، المجلد ٨، العدد ٢، مسرح الطفل: المفهوم، والأنواع، والخصائص، ص ١٢٠.

٢١) المرجع السابق.

٢٢) عالم المعرفة، المسرح الشعري العربي: الأزمة، والمستقبل، د. مصطفى عبد الغني، ص ٢٢، ٦٨.

٢٣) في الأدب المسرحي، د. عبد الحميد شيحة، ص ١٥٣.

٢٤) مجلة الأثر: الشعر الموجه للأطفال: المصطلح، وإشكالية المعايير، د. العيد جلولي، ص ١٤٣.

٢٥) المرجع السابق.

٢٦) في الأدب المسرحي، د. عبد الحميد شيحة، ص ١٦٣.

٢٧) المرجع السابق، ص ١٦٤.

٢٨) شعر الأطفال في الوطن العربي: دراسات نقدية، بيان الصفدي، الفصل السابع، ص ٧٣.

٢٩) المرجع السابق، ص ٧٧.

٣٠) المرجع السابق، ص ٧٩، ٨٠.

٣١) المرجع السابق، ص ٨١.

**المصادر والمراجع:**


١. أدب الأطفال دراسة وتطبيق، عبد الفتاح أبو معال، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط٢. ١٩٨٨.

٢. أدب الأطفال وأساليب تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم، عبد الفتاح أبو معال، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١. الإصدار الأول، ٢٠٠٥.

٣. الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر المسرحي، مصري عبد الحميد حنورة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.

٤. الأثر: مجلة جامعية محكمة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة قاصدي مرباح ورقلة الجزائر، الشعر الموجه للأطفال: المصطلح، وإشكالية المعايير، العيد جلولي، العدد ٧، ٢٠٠٨.

٥. المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية: المؤتمر السنوي الخامس عشر، قضايا الطفولة ومستقبل مصر، إبداع الأطفال الأدبي قراءة في ضوء علم اجتماع النص، محمود أحمد عبد الله.

٦. التنمية الثقافية للطفل العربي، عبد الله أبو هيف، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠١.

٧. جامعة القدس المفتوحة، كلية الدراسات العليا: برنامج الماجستير، اللغة العربية وآدابها، اللغة في شعر الأطفال عند أحمد شوقي: دراسة صوتية دلالية، رغيد صالح علي صبري، فلسطين، ٢٠١٩.

٨. دراسات في الثقافة والتراث والهوية، شريف كناعنة، رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ٢٠١١.

٩. مجلة النص المجلد ٨، العدد ٢، مسرح الطفل: المفهوم، والأنواع، والخصائص، الجزائر: كبير الشيخ، ٢٠٢١.

١٠. مجلة التقني، المجلد ٢٦، العدد ٦، أدب الأطفال في العالم العربي: مفهومه، ونشأته، وأنواعه، وتطوره، دراسة تحليلية، رافد سالم سرحان شهاب، ٢٠١٣.

١١. عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، المسرح الشعري العربي (الأزمة والمستقبل)، مصطفى عبد الغني، الكويت، ٢٠١٣.

١٢. في أدب الأطفال، دكتور علي الحديدي، مكتبة الانجلو المصرية، ط٤. ١٩٨٨.

١٣. في الأدب المسرحي، عبد الحميد شيحة، مكتبة الآداب، ط٤. ٢٠١٤.

١٤. فنون الأدب في لغة العرب، مقالات دراسات ومقالات نقدية، وحوارات أدبية: الخيال في الشعر، إبراهيم عوض.

١٥. شعر الأطفال في الوطن العربي: دراسة تاريخية نقدية، بيان الصفدي.